وتلك الأبواب كما قلت هى إمَّا للجزاءات ؛ أو هى أبواب الطاعات التى أدَّت إلى الجزاءات ، وتدخل عليهم الملائكة من كُلِّ باب ؛ فماذا تقول الملائكة ؟

يقول الملائكة لأهل الجنة :

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾ [1]

والسلام يعنى الاطمئنان والرضا الذى لا تأتى بعده الأغيار ؛ لأن السلام فى الدنيا قد تُعكِّر أمْنه أغيارُ الحياة ؛ فأنتم أيها المؤمنون الذين دخلتم الجنة بريئون من الأغيار .

وقال ﷺ عن لحظات ما بعد الحساب :

« الجنة أبداً ، أو النار أبداً »[2] .

ولذلك يقول سبحانه عن خيرات الجنة :

﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة]

والملائكة كما نعلم نوعان :

الملائكة المهيمون الذين يشغلهم ذكر الله تعالى عن أىِّ شىء ولا يدرون بنَا ؛ ولا يعلمون قصة الخَلْق ؛ وليس لهم شأنٌ بكُلِّ ما يجرى ؛ فليس فى بالهم إلا الله وهم الملائكة العَالُون ؛ الذين جاء ذكرهم فى قصة السجود لآدم حين سأل الحق سبحانه الشيطان :

---

(١) العاقبة والعُقْبى : آخر كل شىء وخاتمته . قال تعالى : ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ٢/٢٨] .

(٢) أخرج الطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم (١/٨٣) وصححه عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فلما قدم عليهم قال : « أيها الناس إن رسول الله ﷺ إليكم يخبركم أن المرد إلى الله وإلى جنة أو نار ، خلود بلا موت ، وإقامة بلا ظعن ، فى أجساد لا تموت » .

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص]

أى : أن العالين هنا هم مَنْ لم يشملهم أَمْرُ السجود ، وليس لهم علاقة بالخلق ، وكُلُّ مهمتهم ذكر الله فقط .

أما النوع الثانى فهم الملائكة المُدبِّرات أمراً ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد استدعى آدم إلى الوجود هو وذريته ، وأعدَّ له كل شىء فى الوجود قبل أن يجىء ؛ الأرض مخلوقة والسماء مرفوعة ؛ والجبال الرَّواسى بما فيها من قُوتٍ ؛ والشمس والقمر والنجوم والمياه والسحاب .

والملائكة المُدبِّرات هم مَنْ لهم علاقة بالإنسان الخليفة ، وهم مَنْ قال لهم[1] الحق سبحانه :

﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ .. (٣٤) ﴾ [البقرة]

وهم الذين يتولَّوْن أمر الإنسان تنفيذاً لأوامر الحق سبحانه لهم ، ومنهم الحفظة الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾

[الرعد]

أى : أن الأمر صادر من الله سبحانه ، وهم بَعْد أنْ يفرغوا من

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره (٧٥/١) إلى أن الملائكة المأمورين بالسجود هنا هم هؤلاء الذين أرسلهم مع إبليس لمحاربة من أفسد فى الأرض وسفك الدماء قبل خلق آدم ، فالحقوهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، فاغتر إبليس فى نفسه ، فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه ، واستدل ابن كثير بحديث طويل لابن عباس أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره .

مـهمـتـهم كـحفظة من رقـيب وعـتـيد على كل إنسـان ، ولن يوجـد مـا يكتبـونه من بعـد الحسـاب وتقـرير الجـزاء ؛ هنا سيـدخل هؤلاء الملائكة على أهل الجـنة ليحملوا ألطاف الله والهـدايا ؛ فهم منُوط بهم الإنسان الخليفة .

وسبحانه حـين يُورد كلمة فى القرآن بموقعهـا البيانى الإعرابى ؛ فهى تُؤدِّى المعـنى الذى أراده سبحانه . والمَثل هـو كلمة «سلام » ؛ فضيف إبراهيم من الملائكة :

﴿ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ ..(٦٩) ﴾ [هـود]

وكان القـياس يقتـضى أن يقول هو « سلامـا » ، ولكنها قضـية إيمانية ، لذلك قال :

﴿ سَلامٌ ..(٦٩) ﴾ [هـود]

فـالسلام هنا لم يَأْتِ منصـوباً ؛ بل جـاء مرفـوعاً ؛ لأن السـلام للملائكة أمرٌ ثـابت لهم ؛ وبذلك حيَّاهم إبراهيم بتحـية هى أحسن من التحية التى حيَّوه بها .

فنحن نُسلِّم سـلاماً ؛ وهو يعنى أن نتمنى حدوث الفـعل ، ولكن إبراهيم عليه السلام فَطِنَ إلى أن السلام أمرٌ ثابت لهم .

وهكذا الحال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة ، فَهُمْ يقولون :

﴿ سَلامٌ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وهى مرفوعـة إعرابياً ؛ لأن السلام أمر ثابت مُسـتقِر فى الجنة ،

وهم قالوا ذلك ؛ لأنهم يعلمون أن السلام أمر ثابت هناك ؛ لا يتغير بتغيُّر الأغيار ؛ كما فى أمر الدنيا .

والسلام فى الجنة لهؤلاء بسبب صبرهم ، كما قال الحق سبحانه على ألسنة الملائكة :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ .. (٢٤) ﴾ [الرعد]

وجاء الصبر فى صيغة الماضى ، وهى صيغة صادقة ؛ فهم قد صبروا فى الدنيا ؛ وانتهى زمن الصبر بانتهاء التكليف .

وهم هنا فى دار جزاء ؛ ولذلك يأتى التعبير بالماضى فى موقعه ؛ لأنهم قد صبروا فى دار التكليف على مشقَّات التكليف ؛ صبروا على الإيذاء ؛ وعلى الأقدار التى أجراها الحقُّ سبحانه عليهم .

وهكذا يكون قول الحق سبحانه :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ .. (٢٤) ﴾ [الرعد]

في موقعه تماماً .

وكذلك قوله الحق عمَّنْ توفَّرت فيهم التسع صفات ، وهم في الدنيا :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

وجاء بالصبر هنا فى الزمن الماضى ؛ رغم أنهم ما زالوا فى دار التكليف ؛ والذى جعل هذا المعنى مُتَّسعاً هو مَجِىء كل ما أمر به الله بصيغة المضارع ؛ مثل قوله تعالى :

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ..(٢٠)﴾ [الرعد]

وهذه مسألة تحتاج إلى تجديد دائم ؛ وقوله :

﴿وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)﴾ [الرعد]

وقوله :

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ..(٢١)﴾ [الرعد]

و ﴿ وَيَخْشَوْنَ ﴾ ، ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ [الرعد]

هكذا نرى كل تلك الأفعال تأتى فى صيغة المضارع ، ثم تختلف الصيغة إلى الماضى فى قوله :

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا .. (٢٢)﴾ [الرعد]

والمتأمل لكل ذلك يعلم أن كل تلك الأمور تقتضى الصبر ؛ وكأن الصبر يسبق كل هذه الأشياء ، وهو القاسم المشترك فى كل عهد من العهود السابقة .

وقد عبَّر الحق سبحانه ـ لأجل هذه اللفْتة ـ بالماضى حين جاء حديث الملائكة لهم وهم فى الجنة .

وهكذا تقع كلمة الصبر فى موقعها ؛ لأن الملائكة تخاطبهم بهذا القول وهم فى دار البقاء ؛ ولأن المتكلم هو الله ؛ فهو يُوضِّح لنا جمال ما يعيش فيه هؤلاء المؤمنون فى الدار الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾ [الرعد]

وعلمنا أن « عُقْبى » تعنى الأمر الذى يجىء فى العَقِب ، وحين يعرض سبحانه للقضية الإيمانية وصفات المؤمنين المعايشين للقيم الإيمانية ؛ فذلك بهدف أن تستشرفَ النفس أن تكون منهم ، ولا بُدَّ أن تنفرَ النفس من الجانب المقابل لهم .

والمثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانفطار]

ويأتى بمقابلها بعدها :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وساعة تقارن بأنهم لو لم يكونوا أبراراً ؛ لكانوا فى جحيم ؛ هنا نعرف قَدْر نعمة توجيه الحق لهم ، ليكونوا من أهل الإيمان .

وهكذا نجد أنفسنا أمام أمرين : سلب مَضرَّة ؛ وجلْب منفعة ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن النار :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا[1] كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً (٧١) ﴾ [مريم]

أى : كلنا سنرى النار .

ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

وذلك لكى يعرف كل مسلم ماذا صنعتْ به نعمة الإيمان ؛ قبل أن

---

(١) ورد يرد : حضر أو أشرف على المكان دخله أو لم يدخله . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠] .
قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : « ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها ، وورود المشركين أن يدخلوها » [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/ ١٣٣] .

يدخل الجنة ، وبذلك يعلم أن الله سلب منه مَضَرَّة ؛ وأنعم عليه بمنفعة ، سلب منه ما يُشقى ؛ وأعطاه ما يُفيد .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

وإذا كان الحق سبحانه قد وصف أُولى الألباب بالأوصاف المذكورة من قبل ؛ فهو يُبيِّن لنا أيضاً خيبة المقابلين لهم ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ (١) وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٢٥) ﴾

ولقائل أنْ يسأل : وهل آمن هؤلاء وكان بينهم وبين الله عهد ونَقَضوه ؟

ونقول : يصح أنهم قد آمنوا ثم كفروا ، أو : أن الكلام هنا ينصرف إلى عهد الله الأزلى.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهنا يوضح سبحانه أن مَنْ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وتأكيده بالآيات الكونية التى تدل على وجود الخالق الواحد :

---

(١) اللعنة : سخطه وغضبه وطرده من رحمته . [القاموس القويم ٢/١٩٥] .

﴿ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ..(٢٥) ﴾ [الرعد]

والمقابل لهم هم أولو الألباب الذين كانوا يَصلون ما أمر سبحانه أن يُوصل ـ وهؤلاء الكفرة نقضة العهد :

﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ [الرعد]

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالمقابل لكُلِّ عمل أدَّاه أولو الألباب ؛ فلم يَقُل : « ولا يخشون ربهم » ؛ لأنهم لا يؤمنون بإله ؛ ولم يَقُلْ : « لا يخافون سوء الحساب » لأنهم لا يؤمنون بالبعث .

وهكذا يتضح لنا أن كل شيء في القرآن جاء بِقَدرٍ ، وفي تمام موقعه .

ونحن نعلم أن الإفساد في الأرض هو إخراجُ الصَّالح عن صلاحه ، فأنت قد أقبلتَ على الكون ، وهو مُعَدٌّ لاستقبالك بكل مُقوِّمات الحياة من مأكل ومَشْرب وتنفس ؛ وغير ذلك من الرزق ، واستبقاء النوع بأن أحلَّ لنا سبحانه أن نتزاوج ذكراً وأنثى .

والفساد في الكون أن تأتي إلى صالح في ذاته فتفسده ؛ ونقول دائماً : إن كنت لا تعرف كيف تزيد الصالح صلاحاً ؛ فاتركه على حاله ؛ واسمع قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقْفُ(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..(٣٦) ﴾ [الإسراء]

فلا تنظر في أيِّ أمر إلى الخير العاجل منه ؛ بل انظر إلى ما يؤول إليه الأمر من بعد ذلك ؛ أيضرٌ أم ينفع ؟

(١) قفاه قفواً : تبعه ، وهو أن يتبع الشيء . والمعنى : لا تتبع ما لا تعلم . [لسان العرب ـ مادة : قفا] .

لأن الضُّرَّ الآجل قد يتلصص ويتسلل ببطء وأَنَاة ؛ فلا تستطيع له دَفْعاً من بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه فى آخر الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد]

ونلحظ أن التعبير هنا جاء باللام مِمَّا يدل على أن اللعنة عشقتهم عشْق المالك للملوك :

﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد]

أى : عذابها ، وهى النار والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ[1] وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

والبَسْط هو مَدُّ الشىء .

وقد أقام العلماء معركة عند تحديد ما هو الرزق ، فهل الرزق هو ما أحلَّه الله فقط ؟ أم أن الرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان سواء أكان حلالاً أم حراماً ؟

---

(١) قدر الله الرزق . جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد ومنه قوله : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ..﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر] أى : ضيَّقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها . [القاموس القويم ١٠٢/٢] .

فمن العلماء مَنْ قال : إن الرزق هو الحلال فقط ؛ ومنهم من قال : إن الرزق هو كل ما يُنتفع به سواء أكان حلالاً أم حراماً ؛ لأنك إنْ قُلْتَ إن الرزق محصور فى الحلال فقط ؛ إذن : فَمَنْ كفر بالله من أين يأكل ؟

ألم يخاطب الحق سبحانه المكابرين قائلاً :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ..(٣١) ﴾ [يونس]

وقال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات]

ويقول تعالى :

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ [الذاريات]

إذن : فالرزق هو من الله ؛ ومن بعد ذلك يأمر « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ..(٢٦) ﴾ [الرعد]

أى : أنه سبحانه يمُد الرزق لِمَن يشاء :

﴿ وَيَقْدِرُ ..(٢٦) ﴾ [الرعد]

من القَدْر . أى : فى حالة إقداره على المُقَدَّر عليه ؛ وهو مَنْ يعطيه سبحانه على قَدْر احتياجه ؛ لأن القَدْر هو قَطْع شىء على

مساحة شيء ، كأنْ يعطى الفقير ويبسط له الرزق على قَدْر احتياجه.

والحق سبحانه أمرنا أنْ نُعطى الزكاة للفقير ؛ ويظل الفقير عائشاً على فقره ؛ لأنه يعيش على الكفاف .

أو : يقدر بمعنى يُضيِّق ؛ وساعة يحدث ذلك إياك أنْ تظن أنَّ التضييق على الفقير ليس لصالحه ، فقد يكون رزقه بالمال الوفير دافعاً للمعصية ؛ ومن العفَّة ألا يجد .

أو : يقدر بمعنى يُضيِّق على إطلاقها ، يقول سبحانه :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ[1] وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾ [الطلاق]

ولأن الله قد آتاه فهذا يعنى أنه بَسَط له بقدره .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٦) ﴾ [الرعد]

وطبعاً سيفرح بها مَنْ كان رزقه واسعاً ؛ والمؤمن هو مَنْ ينظر إلى الرزق ويقول : هو زينة الحياة الدنيا ؛ ولكن ما عند الله خَيْر وأبقى .

أما أهل الكفر فقد قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

---

(١) السعة فى المال : الغنى والثراء والرخاء واتساع الأرزاق . [القاموس القويم ٢/٣٢٧] .

(٢) المقصود بالقريتين : مكة والطائف . قاله ابن عباس وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى وقتادة والسدى وابن زيد . واختلفوا فى المقصود بهذين الرجلين . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

ويردُّ الحق سبحانه عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

وساعةَ تبحث فى تحديد هذا البعض المبسوط له الرزق ؛ والبعض المُقدَّر عليه فى الرزق ؛ لن تجد ثباتاً فى هذا الأمر ؛ لأن الأغيار قد تأخذ من الغنىِّ فتجعله فقيراً ؛ وقد تنتقل الثروة من الغنىِّ إلى الفقير .

وسبحانه قد ضمن أسباباً عُلْيا فى الرزق ؛ لكل من المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصى ؛ وكلنا قد دخل الحياة ليأخذ بيده من عطاء الربوبية ؛ فإنْ قصَّر واحد ؛ فليس لهذا المَرْء من سبب سوى أنه لم يأخذ بأسباب الربوبية وينتفع بها .

وقد يأخذ بها الكافر وينتفع بها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

إذن : فليس هناك تضييق إلا فى الحدود التى يشاؤها الله ، مثل أن يزرع الإنسان الأرضَ ، ويتعب فى الرىِّ والحَرْث ؛ ثم تأتى صاعقة أو برد مصحوب بصقيع فيأكل الزرع ويُميته .

وفى هذا لَفْتٌ للإنسان ؛ بأنه سبحانه قد أخذ هذا الإنسان من

رزقه ؛ وهو العطاء منه ؛ كي لا يُفْتَنَ الإنسان بالأسباب ، وقد يأتي رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٢٦) ﴾ [الرعد]

والفرح في حَدِّ ذاته ليس ممنوعاً ولا مُحرّماً ، ولكن الممنوع هو فرح البطر كفرح قارون :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ[1] عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[2] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ ..(٧٦) ﴾ [القصص]

والحق سبحانه قد قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]

وهذا هو فرح البطر الذى لا يحبه الله ؛ لأنه سبحانه قال فى موقع آخر :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾

[يونس]

(١) البغى : الظلم والكبر ومجاوزة الحد . والباغى : المتجاوز الحد . [القاموس القويم ١/٧٧] .

(٢) ناء الرجل بالحمل ينوء : نهض به متثاقلاً فى جهد ومشقة اى : تثقل عليهم مفاتيح كنوز قارون وتجهدهم . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يأتى بفرحهم ؛ وبسبب هذا الفرح وهو الحياة الدنيا ؛ أى : أنه سبب تافه للفرح ، لأنها قد تُؤخذ منهم وقد يُؤخذون منها ، ولكن الفرح بالآخرة مختلف ، وهو الفرح الحق .

لذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

ويقيس الحق سبحانه أمامنا فرح الحياة الدنيا بالآخرة ، فيقول :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) ﴾ [الرعد]

ومتاع الرجل هو ما يعده إعداداً يُنفقه فى سفر قصير ، كالحقيبة الصغيرة التى تضع فيها بعضاً من الملابس والأدوات التى تخصُّك لسفر قصير .

والعاقل هو مَنْ ينظر إلى أقصى ما يمكن أن يفعله الإنسان فى الحياة ؛ فقد يتعلم إلى أنْ يصل إلى أرْقى درجات العلم ؛ ويسعى فى الأرض ما وَسعه السَّعْى ؛ ثم أخيراً يموت .

والمؤمن هو مَن يَصل عمل دُنْياه بالآخرة ؛ ليصلَ إلى النعيم الحقيقى ، والمؤمن هو مَنْ يبذل الجهد ليصلَ نفسه برحمة الله ؛ لأنها باقية ببقاء الله ، ولأن المؤمن الحق يعلم أن كل غاية لها بَعْد ؛ لا تعتبر غاية .

ولذلك فالدنيا فى حَدِّ ذاتها لا تصلح غايةً للمؤمن ، ولكن الغاية الحقَّة هى : إمَّا الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ(١) مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(٢) ﴿٢٧﴾ ﴾

ونعلم أن « لولا » إذا دخلت على جملة اسمية فلها وَضْع يختلف عنه وَضْعها إذا دخلتْ على جملة فعلية ، فحين نقول : « لولا زيد عندك لَزُرْتُكَ » يعني امتناع حدوث شيء لوجود شيء آخر . وحين نقول : لولا تُذاكر دروسك . فهذا يعني حضاً على الفعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النور]

والجملة التي دخلت عليها « لولا » في هذه الآية هي جملة فعلية ، وكأن الحق سبحانه يحضُّنا هنا على أن نلتفتَ إلى الآية الكبرى التي نزلت عليه ﷺ ، وهي القرآن .

وقد تساءل الكافرون ـ كَذِباً ـ عن مجيء آية ؛ وكان تساؤلهم بعد مجيء القرآن ، وهذا كذب واقع ؛ يناقضون به أنفسهم ؛ فقد قالوا :

---

(١) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . وتجمع آية على « آيْ » و « آيات » . قال تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة] أي : المعجزات والعلامات الدالة المرشدة إلى الحق . [القاموس القويم : ١/٤٧] .

(٢) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود] إليه أتوب وأرجع . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾

[الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حَدَّ الإعجاز وتمنَّوْا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين - مكة أو الطائف .

وهم مَنْ قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ[1] إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر]

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبغوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب ، ويتذوقون البيان ، ويتذوقون الفصاحة ؛ ويقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم فى البلاغة والقصائد ، فهم أمة تطرَبُ فيها الأذن لما ينطقه اللسان .

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتى نزلت على الرسل السابقين عليهم السلام ، ونَسُوا أن الآية الكونية عمرها مَقْصور على وقت حدوثها ؛ ومَنْ رآها هو مَنْ يصدقها ، أو يصدقها مَنْ يُخبره بها مصدر موثوق به .

ولكن رسول الله ﷺ هو المبعوث لتنظيم حركة الحياة فى دنيا الناس إلى أنْ تقوم الساعة ؛ ولو أنه قد جاء بآية كونية ؛ لأخذتْ زمانها فقط .

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يأتى بآية معجزة باقية إلى أنْ تقومَ الساعةُ ، فضلاً عن أنه ﷺ قد جاءتْ له معجزات حسِّية ؛ كتفجُّر

(١) الذِّكْر : الكتاب الذى فيه تفصيل الدين ، وكل كتاب من كتب الأنبياء عليهم السلام ذِكْر . [لسان العرب - مادة : ذكر] .

الماء من بين أصابعه[١] ؛ وحفنة الطعام التى أشبعتْ جيشاً ؛ وأظلَّتْه السحابة ؛ وحَنّ[٢] جذْع الشجرة حنيناً إليه ليقف من فوقه خطيباً ؛ وجاءه الضَّبُّ مسلماً[٣] .

كل تلك آيات كونية هى حُجَّة على مَنْ رآها ، وكذلك معجزات الرُّسل السابقين ، ولولا أنْ رواها لنا القرآن لَمَا آمنَّا بها ، وكانت الآيات الكونية التى جاءت مع الرسل هى مجرد إثبات لِمَنْ عاشوا فى أزمان الرسل السابقين على أن هؤلاء الرسل مُبلِّغون عن الله .

وقد شرح الحق سبحانه هذا الأمر بالنسبة لرسول الله ﷺ حين قال :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ (٥٩) ﴾ [الإسراء]

(١) أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (٤/١١٦) من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه ، أن هذا كان يوم الحديبية ، أن الناس قالوا لرسول الله ﷺ : « ليس عندنا ماء نشرب ، ولا ماء نتوضأ ، إلا ما بين يديك . فوضع رسول الله ﷺ يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه مثل العيون » .

(٢) حَنَّ الجذع إليه : نزع واشتاق . وأصل الحنين ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها . [لسان العرب - مادة : حنن] .

(٣) أخرج البيهقى فى « دلائل النبوة » (٦/٣٦) من حديث عمر بن الخطاب أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : « واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب ، وأخرج ضباً من كمه وطرحه بين يدى رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : يا ضب ، فأجابه الضب بلسان عربى مبين يسمعه القوم جميعاً : لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة . قال : من تعبد يا ضب ؟ قال : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عقابه . قال : فمن أنا يا ضب ؟ قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك ، وقد خاب من كذبك » .

أى : أن الرسل السابقين الذين نزلوا فى أقوامهم وصحبتْهم الآياتُ الكونية قابلوا أيضاً المُكذّبين بتلك الآيات ، وقوم رسول الله ﷺ قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) ﴾ [الإسراء]

ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا[2] مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا (١١١) ﴾ [الأنعام]

وهكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أنهم غارقون فى العِنَاد ولن يؤمنوا ، وأن أقوالهم تلك هى مجرد حُجَج يتلكئون بها .

وهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقولون :

﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٧) ﴾ [الرعد]

وهكذا نجد أنهم يعترفون أن له رباً ؛ على الرغم من أنهم قد اتهموه من قبل أنه ساحر ، وأنه ـ والعياذ بالله ـ كاذب ، وحين فَتَرَ[3]

---

(١) الكسفة : القطعة . وجمعها : كِسْف وكِسَف . وكسف الثوب : قطعه قطعاً . [القاموس القويم ٢/١٦١] .

(٢) القبل : المعاينة والمقابلة والمواجهة . وقيل : جمع قبيل ، أى : أصنافاً وأنواعاً . [القاموس القويم ٢/٩٨] .

(٣) فَتَر الشيءُ : سكن بعد حدّة ، ولان بعد شدة . والفترة : الانكسار والضعف . والفترة : ما بين كل نبيين من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

عنه الوحى قالوا : « إن ربَّ محمد قد قلاه »[1] .

وأنزل الحق سبحانه الوحى :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

أى : أن الوَحْى سوف يستمر ، وهكذا فضح الله كَذِبهم على مَرِّ سنوات الرسالة المحمدية .

وهم هنا يتعنتون فى طَلَبِ الآية الحسِّية الكونية ؛ وكلمة آية كما عرفنا من قبل هى : إما آية كونية تُلفِت إلى وجود الخالق .

أو : آية من القرآن فيها تفصيلٌ للأحكام ؛ وليستْ تلك هى الآية التى كانوا يطلبونها .

أو : آية معجزة تدلُّ على صدْق الرسالة .

وكأنَّ طلبَ الآيات إنما جاء لأنهم لم يقتنعوا بآية القرآن ؛ وهذا دليل غبائهم فى استقبال أدلَّة اليقين بصدق الرسول ﷺ ؛ لأن القرآن جاء معجزةً ، وجاء منهجاً .

والمعجزة ـ كما أوضحنا ـ إنما تأتى من جنس ما نبغ فيه القوم ، ولا يأتى سبحانه بمعجزة لقوم لم يُحْسِنوا شيئاً مثلها ، ولم ينبغُوا فيه .

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٥٢٢/٤) أن جندباً بن عبد الله قال : « أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] » .

فالذين كانوا يمارسون السِّحْر[1] جاءتْ المعجزة مع الرسول المرْسَل إليهم من نفس النوع ، والذين كانوا يعرفون الطبَّ ، جاء لهم رسول[2] ، ومعه معجزة ممَّا نبغُوا فيه .

وقد جاءت معجزة رسول الله ﷺ من جنس ما نبغُوا فيه ؛ فضلاً عن أن القرآن معجزة ومنهج في آنٍ واحد ، بخلاف معجزة التوقيت والتقيد في زمن .

ومع ذلك ، فإن كفار مكة تعنتُوا ، ولم يكتفُوا بالقرآن معجزةً وآيات تدلُّهم إلى سواء السبيل ؛ بل اقترحوا هم الآية حسب أهوائهم ؛ ولذلك نجدهم قد ضلُّوا .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ﴾ [الرعد]

وهنا نقف وَقْفة ؛ لأن البعض يحاول أن يُسقط عن الإنسان مسئولية التكليف ؛ ويدَّعي أن الله هو الذي يمنع هداية هؤلاء الكافرين . ونقول : إننا إن استقرأنا آيات القرآن ؛ سنجد قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) المقصود بهم سحرة فرعون ، وقد قصَّ علينا الحق سبحانه قصة موسى عليه السلام ومواجهته لسحرة فرعون ، إذ : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ [الشعراء] .

(٢) هو عيسى [illegible] ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي (١١٠) ﴾ [المائدة] .

ونجد قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

ومن كل ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذى يجعله سبحانه لا يهديهم ، لأن الإنسان ما دام قد جاء له حُكْم أعلى ، ويؤمن بمصدر الحكم ؛ فمن أنزل هذا الحكم يُعطى للإنسان معونة ، لكن مَنْ يُكذِّب بمصدر الحُكْم الأعلى فسبحانه يتركه بلا معونة .

أما مَنْ يرجع إلى الله ؛ فسبحانه يهديه ويدلُّه ويعينه بكل المَدَد .

ويواصل الحق ما يمنحه سبحانه من اطمئنان لمن يُنيب إليه ، فيقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾

ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقراره وأُنْسُه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل ليناقشها من جديد .

ونعلم أن الإنسانَ له حواسٌّ إدراكية يستقبل بها المُحسَّات ؛ وله عقل يأخذ هذه الأشياء ويهضمها ؛ بعد إدراكها ؛ ويفحصها جيداً ، ويتلمس مدى صِدْقها أو كَذِبها ؛ ويستخرج من كل ذلك قضية

واضحة يُبقيها فى قلبه لتصبح عقيدة ، لأنها وصلت إلى مرحلة الوجدان المحب لاختيار المحبوب .

وهكذا تمرُّ العقيدة بعدة مراحلَ ؛ فهى أولاً إدراك حِسِّى ؛ ثم مرحلة التفكّر العقلى ؛ ثم مرحلة الاستجلاء للحقيقة ؛ ثم الاستقرار فى القلب لتصبح عقيدة .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وتطْمَئِنُّ قُلُوبهُم .. (٢٨) ﴾ [الرعد]

فاطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة ؛ وقد يمرُّ على القلب بعضٌ من الأغيار التى تزلزل الإيمان ، ونقول لمن تمرُّ به تلك الهواجس من الأغيار : أنت لم تُعْطِ الربوبية حقَّها ؛ لأنك أنت المَلُوم فى أىِّ شىء يَنَالُكَ .

فلو أحسنتَ استقبال القدر فيما يمرُّ بك من أحداث ، لَعلمْتَ تقصيرك فيما لك فيه دَخْل بأىِّ حادث وقع عليك نتيجة لعملك ، أما مَا وقع عليك ولا دَخْل لك فيه ؛ فهذا من أمر القَدَر الذى أراده الحقُّ لك لحكمة قد لا تعلمها ، وهى خَيْرٌ لك .

إذن : استقبال القدر إن كان من خارج النفس فهو لك ، وإن كان من داخل النفس فهو عليك .

ولو قُمْتَ بإحصاء ما ينفعك من وقوع القدر عليك لَوجدتَّه أكثرَ بكثير مما سلَبه منك . والمَثَل هو الشاب الذى استذكر دروسه واستعدَّ للامتحان ؛ لكن مرضاً داهمه قبل الامتحان ومنعه من أدائه .

هذا الشاب فعلَ ما عليه ؛ وشاءَ الله أن ينزل عليه هذا القدر لحكمة ما ؛ كأنْ يمنع عنه حسَد جيرانه ؛ أو حسدَ مَنْ يكرهون أُمه أو أباه ، أو يحميه من الغرور والفتنة فى أنه مُعتمد على الأسباب لا على المُسبِّب . أو تأخير مرادك أمام مطلوب الله يكون خيراً .

وهكذا فعَلى الإنسان المؤمن أن يكون موصولاً بالمُسبِّب الأعلى ، وأنْ يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأنْ يعلم أن التوكل على الله يعنى أن تعمل الجوارح ، وأنْ تتوكَّل القلوب ؛ لأن التوكل عملٌ قلبى ، وليس عملَ القوالب .

ولينتبه كُلٌّ منّا إلى أن الله قد يُغيب الأسباب كى لا نغتر بها ، وبذلك يعتدل إيمانك به ؛ ويعتدل إيمان غيرك .

وقد ترى شاباً ذكياً قادراً على الاستيعاب ، لكنه لا ينال المجموع المناسب للكلية التى كان يرغبها ؛ فيسجد لله شكراً ؛ مُتقبِّلاً قضاء الله وقدَره ؛ فيُوفِّقه الله إلى كلية أخرى وينبغ فيها ؛ ليكون أحدَ البارزين فى المجال الجديد .

لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وهكذا نجد أن مَنْ يقبل قَدر الله فيه ، ويذكر أن له رباً فوق كل الأسباب ؛ فالاطمئنان يغمرُ قلبه أمام أىِّ حدَث مهْمَا كان .

وهكذا يطمئن القلب بذكر الله ؛ وتهون كُلّ الأسباب ؛ لأن الأسباب إنْ عجزتْ ؛ فلن يعجز المُسبِّب .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه الآية فى معْرِض حديثه عن التشكيك

الذى يُثيره الكافرون ، وحين يسمع المسلمون هذا التشكيك ؛ فقد توجد بعض الخواطر والتساؤلات : لماذا لم يأتِ لنا رسول الله ﷺ بمعجزة حسيَّة مثل الرُّسُل السابقين لتنفضّ هذه المشكلة ، وينتهى هذا العناد ؟

ولكن تلك الخواطر لا تنزع من المؤمنين إيمانهم ؛ ولذلك يُنزِل الحق سبحانه قوله الذى يُطمئن :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [الرعد]

والذِّكْر فى اللغة جاء لِمَعَانٍ شتّى ؛ فمرَّةً يُطلق الذِّكر ، ويُرَاد به الكتاب أى : القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ويأتى الذكر مرّة ، ويُرَاد به الصِّيت والشهرة والنباهة ، يقول تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى : أنه شَرَفٌ عظيم لك فى التاريخ ، وكذلك لقومك أنْ تأتى المعجزة القرآنية من جنس لغتهم التى يتكلمون بها .

وقد يُطلَق الذكر على الاعتبار ؛ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا[1] (١٨) ﴾ [الفرقان]

---

(١) البوار : الهلاك . والبائر : الهالك . قال الجوهرى : البور الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . ودار البوار : دار الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : بور] .

أى : نسوا العبر التى وقعتْ للأمم التى عاشتْ من قبلهم ؛ فنصرَ الله الدينَ رغم عناد هؤلاء .

وقد يُطلق الذِّكْر على كُلِّ ما يبعثه الحق سبحانه على لسان أيِّ رسول :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وقد يُطلَق الذِّكْر على العطاء الخيِّر من الله .

ويُطْلَق الذِّكْر على تذكُّر الله دائماً ؛ وهو سبحانه القائل :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

أى : اذكرونى بالطاعة أذكرْكُم بالخير والتجليّات ، فإذا كان الذِّكْر بهذه المعانى ؛ فنحن نجد الاطمئنان فى أىِّ منها ، فالذكر بمعنى القرآن يُورِث الاطمئنان .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

فكُلُّ آية تأتى من القرآن كانت تُطمئِنُ الرسول ﷺ أنه صادقُ البلاغِ عن الله ؛ فقد كان المسلمون قلة مُضطهدة ، ولا يقدرون على حماية أنفسهم ، ولا على حماية ذَويهم .

ويقول الحق سبحانه فى هذا الظرف :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

ويتساءل عمر[١] رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا ؛ وقد هاجر بعضنا إلى الحبشة خوفاً من الاضطهاد ؟

ولكن رسول الله ﷺ يسير إلى بدر ، ويُحدِّد أماكن مصارع كبار رموز الكفر من صناديد قريش ؛ ويقول : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »[٢] ؛ بل ويأتى بالكيفية التى يقع بها القتل على صناديد قريش ؛ ويتلو قول الحق سبحانه :

﴿ سَنَسِمُهُ[٣] عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم]

وبعد ذلك يأتون برأس الرجل الذى قال عنه رسول الله ذلك؛ فيجدون الضربة قد جاءت على أنفه[٤] .

فمنْ ذَا الذى يتحكم فى مواقع الموت ؟

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٢٦٦/٤) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] . قال عمر : أىّ جمع يهزم ؟ أى أىّ جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٢١٩/٣ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) وسمه يسمه وَسْماً : جعل له علامة يُعْرف بها بالكىّ أو بقطع جزء من الجسم . قال تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] . أى : سنجعل له علامة فوق أنفه بالكى أو بالجدع أو بالقطع ، وهذه العبارة كناية عن الإذلال أى سنذله . [القاموس القويم ٣٣٨/٢] .

(٤) قال ابن عباس فى تفسير الآية من تفسيره (٤٠٥/٤) : « يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف فى القتال » . وأخرج مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب أنه بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه . فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفه ، وشُقَّ وجهه كضربة السوط .

إن ذلك لا يتأتى إلاَّ من إله هو الله ؛ وهو الذى أخبر محمداً ﷺ بهذا الخبر :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وقد طمأنَ هذا القولُ القومَ الذين اتبعوا رسول الله ﷺ الذى لا يعلم الغيب ، ولا يعلم الكيفية التى يموت عليها أىُّ كافر وأىُّ جبار ؛ وهو ﷺ يخبرهم بها وهُمْ فى منتهى الضَّعْف .

وهذا الإخبار دليل على أن رصيده قوىّ عند علاَّم الغيوب .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

يعنى : أن القلوب تطمئن بالقرآن وما فيه من أخبار صادقة تمام الصدق ، لتؤكد أن محمداً ﷺ مُبلِّغ عن ربِّه ؛ وأن القرآن ليس من عند محمد ﷺ بل هو من عند الله .

وهكذا استقبل المؤمنون محمداً ﷺ وصدَّقوا ما جاء به ؛ فهاهى خديجة ـ رضى الله عنها وأرضاها ـ لم تكُنْ قد سمعت القرآن ؛ وما أنْ أخبرها رسول الله ﷺ بمخاوفه من أنَّ ما يأتيه قد يكون جنّاً ، فقالت :

« إنك لتَصلُ الرَّحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتَقْرى الضَّيْف ، وتُعينَ على نَوائب الحق ، والله ما يخزَيك الله أبداً »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال . و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته . « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر شرح النووى على مسلم (٢/ ٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/ ٢٤) .

وها هو أبو بكر - رضى الله عنه وأرضاه - يصدق أن محمداً رسول من الله ، فَوْرَ أن يخبره بذلك .

وهكذا نجده ﷺ قد امتلك سمَاتاً ؛ وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يُصدِّقون كُلَّ ما يَقول فَوْر أنْ ينطق .

ونلحظ أن الذين آمنوا برسالته ﷺ ؛ لم يؤمنوا لأن القرآن أخذهم ؛ ولكنهم آمنوا لأن محمداً ﷺ لا يمكن أن يكْذبهم القول ، وسيرته قبل البعثة معجزة فى حَدِّ ذاتها ، وهى التى أدَّتْ إلى تصديق الأوَّلين لرسول الله ﷺ .

أما الكفار فقد أخذهم القرآن ؛ واستمال قلوبهم[1] ، وتمنَّوْا لو نزل على واحد آخر غير محمد ﷺ .

وحين يرى المؤمنون أن القرآن يُخبرهم بالمواقف التى يعيشونها ، ولا يعرفون لها تفسيراً ؛ ويخبرهم أيضاً بالأحداث التى سوف تقع ، ثم يجدون المستقبل وقد جاء بها وفْقاً لما جاء بالقرآن ، هنا يتأكد لهم أن القرآنَ ليس من عند محمد ، بل هو من عند رَبِّ محمد ﷺ .

---

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٣١٥) « أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .. » وحدث هذا الليلة الثالثة .

ولذلك فحين يُثير الكفار خزعبلاتهم للتشكيك في محمد ﷺ يأتي القرآن مُطَمْئناً للمؤمنين ؛ فلا تؤثر فيهم خزعبلات الكفار .

والمؤمن يذكر الله بالخيرات ؛ ويعتبر من كل ما يمرُّ به ، وبكل ما جاء بكتاب الله ؛ وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئنُّ بذكر الله ؛ لأنه قد آمن إيمانَ صِدْقٍ .

وقد لمس المؤمنون أن أخبار النبي التي يقولها لهم قد تعدَّتْ محيطهم البيئيَّ المحدود إلى العالم الواسع بجناحَيْه الشرقي في فارس ، والغربي في الروم .

وقد أعلن لهم رسول الله ﷺ ـ على سبيل المثال ـ خبر انتصار الروم على الفرس ، حين أنزل الحق سبحانه قوله :

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ .. (٤) ﴾ [الروم]

فأروني أيَّ عبقرية في العالم تستطيع أن تتحكم في نتيجة معركة بين قوتين تصطرعان وتقتتلان ؛ وبعد ذلك يحدد مَن الذي سينتصر ، ومن الذي سيُهزم بعد فترة من الزمن تتراوح من خَمْس إلى تِسْع سنوات ؟

وأيضاً تأتي الأحداث العالمية التي لا يعلم عنها رسول الله ﷺ شيئاً ، وتوافق ما جاء بالقرآن .

وكُلُّ ذلك يجعل المؤمنين بالقرآن في حالة اطمئنان إلى أن هذا القرآن صادق ، وأنه من عند الله ، ويُصدِّق هذا قول الحق سبحانه :